

مع الطبيعة

بقلم الدكتور فؤاد صروف . بيروت ، ١٩٦٢

والقيم الخلقية والاجتماعية ، لان هذا الاندماج شرط اساسي لادراك الحكمة وبناء المدينة الفاضلة. ويرى المؤلف ان هذا الاندماج بات ضرورة ملحة في هذا العصر الذي سخر فيه العلم هذه الطبيعة المصيبة للانسان . فالمشكلة لم تدم مشكلة عجز العقل حيال الطبيعة ، والانتفاع بها ، بعد ان تفوقت قدرة العقل على قدرة الطبيعة ؛ ولكن المشكلة هي كيف ننتفع بالقدرة لتحقيق العدالة والحرية والخير والرخاء في الجماعة . اي انها مشكلة خلقية اجتماعية .

وفي الحق ان ما يعاينه العالم اليوم من اشد الازمات انما ينبع من صميم هذه المشكلة . ولو ان الناس ارادوا لبعضهم من هذه العدالة والحرية والخير ما يريدون لانفسهم لحف الشيء الكثير من حدة هذه الازمات ، وكما قال المؤلف « ان مشكلة العالم ليست بمشكلة معرفة ، بل مشكلة قيمة المعرفة من الناحية الخلقية » . ولذلك كان على القدرة التي فتقها العلم واطلقها ان تضبطها الفضيلة ، حتى تجدي جدواها الخيرة . والمؤلف حريص على ان يستعيد الفكر العربي دوره في الطبيعة ، وقد كان له هذا الدور في السابق . وهو يعتقد بأن كل حضارة ترضى بالانعزال تكتب على نفسها الركود والزوال ، وكل حضارة اصيلة لا تحيا الا اذا كانت تأخذ وتمطي ، وبغير التلاحق الفكري على المدى الطويل تصاب الحضارة بالعم . ومن اولى من هذا العصر بهذا التلاحق الفكري بعدما صغرت الارض واتسعت

هذا الكتاب ، كما ورد في تعريف المؤلف ، « سوانح فكر جمعتها على موائد الطبيعة ، ومعان من حياتها وحياتي ، استعدتها فمشت في نعمائها مرتين ، ثم دوتها وضممتها بين دفعتي كتاب » . وفي الكتاب فصول متنوعة جمعت في بابين : الباب الاول « فئات من موائدها » والباب الثاني « امراء في مجالسها » . ويعتبر الباب الاول تمهيداً لأدب الطبيعة واخلاق الطبيعة ، تنطوي تحته الخصائص الفكرية والخلقية التي ينبغي للطبيعة ان تنصف بها .

لذلك بدأ المؤلف بالتربية والكارثة ، ثم اي الرجال المثقف ، ثم عرض لامثلة من مشاغل المواطنة الصالحة . فمن معاني الطبيعة عند المؤلف ان تؤمن بأن طلب المعرفة جهاد ليس له حد يقف عنده ، وان المعرفة التي يتلقاها الطالب خليفة ان ينسى دقائق بعضها وتفاسيدها ، ولكن العقل المشوق الى الحقيقة المدرب على البحث المحكم الحر هو الزاد الفكري الابقى . وهو في هذه النقطة يعالج داء انتشار الثقافة التي ليس لها شخصية ولا جذور قائمة بنفسها . والثقافة ما دامت مستعارة لا خير فيها ، لان غاية المعرفة الصحيحة ان تبعد العقل المدرب التواق الى الانطلاق نحو الحقيقة . ومن هنا بتنا نحس يجذب العقول عندنا ، لان هذه العقول جاهدت في جمع المعرفة ولم تجاهد في ان تجمع خصائص توليد المعرفة وتوسيعها .

والمؤلف حريص على ان تندمج المعاني الفكرية

من رجال الطبيعة ، وبينها من لا يصلة بالطليعة شيء ، الا ان يكون له اثر من تعلم او صداقة او اعجاب في نفس المؤلف . ومن وراء هذه النماذج شخصيات اقوى منها اثراً لم يعرض لها ، كالريحاني وجبران والشميل الذي كان معلم العقل ورسول حرية الفكر غير منازع في جيله وعصره ، وغير هؤلاء ممن كانت مشاعلهم انور ، وادبهم الى الادب الطليعي اقرب .

من هؤلاء الذين لم بهم المؤلف الاخطل الصغير والياس فرحات وشبلي الملاط كشمراء ، والرافعي والمنذر كأدياء ، وحسن كامل الصباح ويعقوب صروف كعلماء ، وغيرهم . على ان هذه الدراسات القصيرة لا يمكننا ان نضمها في الجوهر الدراسي المتكامل لان المؤلف لم يتوخ منها ذلك ، وانما هي ادنى الى ان تكون انفعالات وذكريات شخصية سجلها المؤلف بروح النصف لها المعجب بها .

ففي بحثه عن الشاعر الهندي طاغور يطيك خصائص الروح الهندية لمحات . ومن ذلك مايقوله طاغور : « يقول الغريون اننا متصوفون ، وعلى نفورهم بسمة ازدياء ، على ان اغنية من اغانينا القومية التي ينشدوها الفلاح في حقله والصيد في قاربه تحدد غاية هذه الفلسفة الصوفية . انهم ينشدون . ماذا جنيت حتى حكم علي بأن اسكن في سجن من الحقائق ؟ » انهم يريدون ان يتحرروا من هذه الحقائق غير الثابتة ليصلوا الى الحق الازلي . وفي اعتقاد طاغور « ان الثقافة الاصلية لا تعرف حدوداً من البلدان والاجناس ، فهي تطوق الارض كالغلاف الجوي الذي يحيط بها » .

وفي فصله عن الشاعر الياس فرحات يعجبني من المؤلف ربطه بين الهمام العالم الباحث والهمام الشاعر الخيالي . وهذا الربط هو نتيجة ايمان الشاعر بوحدة المدارك الانسانية ، « فالحظة التي تستوي فيها للباحث لحة من حقيقة ، كالحظة التي ينزاح فيها للشاعر لثام عن جبال او خير او قوة او حق او

قدرة الانسان على موارد الطاقة وعبثت يده بأسرار الطبيعة ؟ وبعدما اصبح العالم كله مترابطاً ترابطاً وثيقاً بين اجزائه ؟ وبعدما رنت العيون كلها في كل مكان الى حياة افضل ؟

والطريق الى حل هذه المشكلة ، مشكلة التفاوت بين عقل الانسان وروح الشرفيه ، هو التربية التي تصدف عن عرض المعرفة ، وتصور الحرية وتمزجها ، ولكنها تقرنها وتدججها في شعور التبعة حتي يستوي ميزان الحكمة .

هذا الشعور بالتبعة ، سواء التبعة الانسانية او التبعة الاجتماعية او التبعة الخلقية ، هو السبيل الى انقاذ مآثر الانسانية وقيمها الباقية على الدهر ، دون ان يفسد منها التقدم العلمي اي شيء ، ودون ان تغرينا الحرية بتهديم كل شيء . ولهذا الغرض تجد في العصر الحديث نزعة قوية بين اهل التربية والفكر الى ضرورة الجمع بين القيم الخالدة المستمدة من تراث الآداب الانسانية ومن طبيعة الاسلوب العلمي نفسه من ناحية ، وفائدة التخصص في علم او فن او صناعة من ناحية اخرى ، حتى يصير المرء انساناً في قرارة نفسه توازن سليم بين القدرة والقيمة ، بين الحرية والتبعة ، فيكون ذلك دربه الى الثقافة الاصلية والحكمة فالى المواطنة الصالحة . وكأني بالمؤلف ، بعد ان تبنى هذه الفكرة ، يدعو الى ما يسميه « بالتوازن الحكيم » ، وهو ان يكون رجل المستقبل - في حالة تخصصه - ملماً بالاشياء الاخرى ، لان المعارف الانسانية مترابطة وبعضها لا يغني عن بعض ، فالاديب لاغنى له عن بعض النظريات العلمية لاغناء ادبه ، والعالم لا مفر له من تدقيق الادب والفن ، حتى يسمو بروحه ويصل عقله .

والباب الثاني من الكتاب هو « آراء في مجالسها » و « حلة المشاعل » ، وينطوي تحت هذا الباب اسماء شعراء وادباء من ابناء الكلمة ، واسماء رجال ادوا رسالتهم في المجتمع ، فهم اذاً نماذج عند المؤلف

ما شاء ان يعب ، فان لم يرض نفسه على ان عليه نحو الجماعة تبعة ينبغي ان تؤدي ، فهو دون الذرى التي اعدته الحياة بلوغها ، فلا الحياة تحقق غرضها الاسمى فيه ولا هو يقضي من الحياة مأربه الامثل ، لان واجبه الفنى مرتبط بواجبه الاجتماعى .

ومن رجال الطلبة - عنده - جميع الذين اكبوا على التراث حتى استردوا بعض ذخائره ، والذين اقاموا في صوامعهم ومجالسهم يرشدون ذوي العقول الغضة ، والذين استشفروا الدنيا ووصلوا الماضي بالعاصر ، وجميع المعلمين الذين كان تعليمهم اشارة عطف او بسمه تشجيع او كلمة حب في تفسير حقيقة او مبدأ ، وجميع الذين وضخوا الاسلوب العلمى في البحث عن الحقيقة ووقفوا موقف المجاهد في توضيح اهم القضايا العلمية التي نشأت عن تطبيق ذلك الاسلوب - شأن المعلم يعقوب صروف - ، وجميع الذين اخذوا من معين الحياة الاسنى اضواء القوها على دروب مظلمة ، مدركين ان افضل انتفاع بالحياة هو ان نبذلها في سبيل شيء يبقى بعد ان تزول .

ولهذا كله نستطيع ان نبحث عن القاسم المشترك في هذه المقالات المتفرقة التي اهتمها البعض بعدم الارتباط بين اجزائها ، وعدم اتصالها كلها بأدب الطلبة ، فنجد فيها بالرغم من كل شيء اشتراكاً الى الطلبة . ومعنى الطلبة - كما يقدمها المؤلف - عقل متطور ، وقلب سليم ، وشعور كريم بالتبعية العلمية والفنية نحو الجماعة .

خليل الهنداوي

فهم ، هي لحظة النشوة العليا .

وفي هذا الفصل يحدد رسالة الشاعر بقوله : « وان الشاعر كائنات عصره ما كان ليس لزاما عليه ان يستقصي ويفصل ويحلل ويوطئ ويستنتج ، بل هو قادر ، اذا كان شاعراً اصيلاً بطبيعة فطرته ، ان يستوعب ويتمثل في قرارته ، وان يلح في الصور المتراكضة المعاني الباقية على الدهر ، واذا هو يغني النفس الانسانية : حيرتها او اطمئنانها ، او يرسم لها روائع الغايات التي تصبو اليها ، او يدلها على جمال فتنثي ، او حق فتخشع ، او ذل فتتمرد ، او مسخف فتزأ ، او حرية فتعتزم ان تصونها » . ان في هذا التحديد - على قصره وضيقه - لنفاذاً عميقاً الى التعريف بحقيقة الشعر ورسالة الشاعر ، تعريفاً لا يجعل من الفن لهما عابراً ولا من الشعر لحناً مسلياً .

واذا كان المؤلف في مجال العلم يحرص على الدراسة العميقة والاختصاص الضيق والبحث الملح فانه - في عالم الشعر - يرحب بالقطرة الصافية « التي اخذتها الحياة بتلايينها ومهرتها بتجاربها وشدت اوتارها ، فاذا الشاعر فيها تراءى له صور متعاقبة ، فيقنعها ويغنو عليها بالعقل المدرك والشعور المرهف ، واذا خير الشعر عنده لا اثر فيه لفكر معنت او لحبال مكدود او لشعور مصطنع او لحكمة لم تملها الحياة نفسها » . أليس في هذه الكلمات المقطعة ما يصح ان يكون دستوراً للشعر الحى الخالد ؟

ولا ينسى المؤلف ان يبرز عمق الانسان في نفس العالم ، لان الرجل قد يعب من يتابع العلم